

مختارات وذكريات

رأيت أن أجمع بين الموضوعين في حديث واحد . لأجعل الذكريات معرضاً للنقد وبيان وجه الخلاف بين النظرة القديمة إلى الشعر والنظرة الحديثة إليه ، وهى النظرة التى شرحنا الغرض منها حين دعونا منذ ثلاثين سنة إلى تجديد الشعر وتجديد الأدب على التعميم .

وقد حاولت فى الاختيار من دواوين شعرى أن أتغلب على صعوبتين : إحداها أننى أختار من ثمانية دواوين تشتمل على مئآت القصائد ، ومن قصائدها ما يبلغ المئات من الأبيات ...

والصعوبة الثانية أن الرجل الذى يفاضل بين قصائده كالرجل الذى يفاضل بين أبنائه وبناته ، وليس الأب - فى أكثر الأحيان - خير حكم بين ذريته ، فإنه قد يعطف على الضعيف منهم ويترك القوى لشأنه مستغنياً عن عطفه وحنانه .

وقد تغلبت على الصعوبتين بالاكتفاء من الدواوين الثمانية بالثلاثة الأخيرة منها وهى (هدية الكروان) و (عابر سبيل) و (أعاصير مغرب) وحكمت فى ذلك تاريخ صدور وحده ، غير معتمد على المفاضلة والتفضيل .

ثم لجأت مع صديق إلى نوع من القرعة في الاختيار بين أرقام الصفحات بغير نظر إلى المقاصد والأبواب ، فكان عمل المصادفة هنا أرجح من عمل الاختيار .

أما الذكريات الأدبية فإنني أسوق منها ما يدل على جوانب الاختلاف بين المدرستين ... مدرسة الأقدمين ومدرسة المحدثين كما شرحناها مع زملائنا في الكتب أو المقالات .

زرت السودان منذ سنوات ثلاث فدعاني نادى الخريجين في الخرطوم إلى سهرة حافلة ، ظننت للوهلة الأولى أنها سهرة أدب وفكاهة ، تجمع بين الطرائف والمحاورات والأناشيد أو الألعاب التي يتسلى بها المهذبون في سهرات الأندية .

ولكنني لم أقض نصف ساعة من السهرة حتى علمت أنني أنا موضوع السهرة الوحيد أو ضحيتها الوحيدة ! فمن نشيد الافتتاح إلى الأبيات التي تغني بها المنشد الأديب إلى المحاضرات والمساجلات - لا شيء غير العقاد الشاعر أو العقاد السياسي أو العقاد الأديب، أو العقاد الإنسان ، أو العقاد المارد الجنى الذي يتشكل بتلك الأشكال والأقانيم .

صبرت على هذه الحملة المنظمة بضع ساعات . فلما انتهت ووجب أن أقول كلمة قبل الختام .. قلت : « أيها الإخوان .. هبوا تحية فلا بد أن أحبيكم بمثلها أو بأحسن منها ، أو هبوا مكيدة فإنني ممن يدينون بعقيدة العين بالعين والسن بالسن

والجروح قصاص ، ولست ممن يدين بالتجاوز والصمت في مثل هذا المقام ..

أيها الإخوان .. من وضعنى على المشرحة سأضعه الآن على المشرحة بعينها ، وكما قال فى سأقول فيه .. وواحدة بواحدة جزاء » .

وكان من خطباء الحفلة أديب ألمعى تكلم عن دواوينى فأعجبته منه لفتات نافذة إلى بعض الدلالات النفسية ، ولاحظ فيما لاحظته أننى أحب أن أقول غير ما قاله الأقدمون ، وأننى أخالف المؤلف المتفق عليه استقلالا بالرأى وطلباً للمخالفة ، ولهذا أصف الحسان بغير أوصافها المعهودة وأبتدع معانى من الغزل تناقض المأثور عن جميع الشعراء ، ومما استشهد به الأديب على ذلك أن الشعراء جميعاً يصفون ليلة الوصل بالقصر ويقولون إنها تتر من مغربها إلى فجرها كلمح بالبصر .. إلا العقاد فإنه يصفها بالطول ويقول فى وصفها ..

طالت ولا غرو فالجنات خالدة وفى الوصال من الجنات ألوان فلما تناولت هذه الملاحظة بالرد والمناقشة قلت : إن شعراء العربية جميعاً أحبوا امرأة واحدة من أقدم عصور الجاهلية إلى القرن التاسع عشر للميلاد . فالعيون التى يصفها امرؤ القيس هى العيون التى يصفها ابن زيدون .. والقوام الذى افتتن به النابغة الذبياني هو القوام الذى افتتن به العباس بن الأحنف ،

والشعر الذى قبله عمر بن أبى ربيعة هو الشعر الذى قبله بهاء الدين زهير ، وربما عاش حتى قبله ابن الساعاتى من ثمانين سنة .. والبكاء من الهجر هو البكاء ، والشكوى من خلف الوعود هى شكواه فهل الأم إذا بحثت لى عن امرأة أصفها غير هذه المرأة التى أحبها ألف رجل أو يزدون ..

واستطردت من ذلك إلى المديح والهجاء والثناء فقلت .. إن الشعراء الأقدمين مثلاً يرثون عظمياً واحداً قلما تختلف صفاته بين شاعر وشاعر . فما حاجة هذا العظيم إلى رثائى وقد شغل الشعراء ألف سنة برثائه .

أما ليلة الوصل وطولها وقصرها فقد كان تفسيرى للمعنى الذى قصده أن الشعور الإنسانى يوصف من جوانب متعددة لا من جانب واحد . فيصح أن توصف ليلة الوصل بالقصر لأن العاشق لا يود أن تطوى ولا يستريح إلى انقضائها . ولكن الليلة التى تملأ عمراً طويلاً بذكرياتها وبها يستعاد فى الخاطر من لذاتها وأحاديثها قد توصف بالخلود على هذا المعنى وقد تطول فى صورتها النفسية حتى تعدل وحدها أيام الحياة ولياليها .

لهذه المناسبة أقول (إن آفة الشعر القديم فى جملة هى قلة الملامح والقسمات) فلا تفرقة فيه بين ممدوح وممدوح ولا بين معشوقة ومعشوقة ولا بين غرام وغرام ولا بين منظر ومنظر ، وإنما يتفاوت الشعراء على الأغلب الأعم ، بحظهم من البلاغة فى

تكرير الوصف الواحد مرات بعد مرات ، وأجياًلاً بعد أجياًل .
أما الذى نريده نحن فهو تمييز هذه الملامح بين جميع أطوار
النفوس الحية . لأن الحياة لا تكرر ملامحها وإنما تكرر القوال .
المصنوعة التى تفرغ فيها التماثيل المحكية . وقد تكون هذه
التماثيل أجمل صورة فى مرأى العين ولكنها لا تستجيب لشعورك
بها استجابة الأحياء .

وفى الجزء الرابع من ديوانى - أشجان الليل - أبيات تصف
حالة المعشوقة التى تريد من عاشقها ألا يحاسبها على الوفاء وأن
يستريح من شكوكها ليستمتع بها غير حافل بخيانتها .. وفى هذه
الآبيات أقول :

تريدى أن أرى بك اليوم للهوى	وأرتاد فىك اللهو بعد التعب
وألقاك جسماً مستباحاً وطالما	لقتيك جم الخوف جم التردد
رويدك إني لا أراك مليئة	بلذة جثمان ولا طيب مشهد
إذا لم يكن بد من الحان والطنى	ففى غير بيت كان بالأمس مسجدي

فلما صدر ديوانى الأخير (أعاصير مغرب) كانت فيه
الآبيات التالية :

لا تخدعيني يا بنية	بالوفاء من اللسان
خنا وخنت ولا أقو	ل سلى فلانة أوفلان
ذهبت خيانتنا معاً	والآن نحن الباقيان

فإذا بناقد أديب يقول في نقد هذه الأبيات وأمثالها .. أين هذا من ذاك وكيف نفرق بين نغمة الديوان الجديد في هذا المعنى ونغمة الديوان القديم .

إن ناقدنا الفاضل كمن يضع صورتين لرجل واحد : صورة في العشرين وصورة في الخمسين ثم يقول .. أين هذا من ذاك ؟ وأين الرجل الذى نراه هنا من الرجل الذى نراه هناك ؟ وإنما سرت إلى الناقد عادة النظر إلى نقد القوالب أو نقد النماذج فنسى أن الشعور المطبوع يتغير بين سن وسن ، وبين معشوقة ومعشوقة ، وبين آداب فترة وآداب فترة أخرى ، وبين عاطفة وعاطفة ، فلا بد فيه إذن من اختلاف التعبير واختلاف التصوير .. وهذه النظرة في نقد الشعر والشعراء هى التى نريد أن نصححها بما نسماه تصوير (الملامح) المختلفة على اختلاف الأحوال والشخوص والموضوعات .. ونظمت منذ عشرين سنة قصيدة قلت فيها أصف بعض الحسان :

ذهبي الشعر ساجى الطر ف حلو اللفتات
ونظمت هذا المعنى قبل ذلك فإذا ببعض الناقدين
يتصايحون .. إن هذا الوصف معيب لأن شعراء العربية لم
يستحسنوا الشعر الأصفر وفضلوا عليه سواد الشعر فى النساء
المعشوقات ..

ومثل هذا النقد لا غرابة فيه إذا أخذنا بالنماذج والقوالب وتجاوزنا عن الملامح والشيات ، لأن الشاعر - عند أصحاب النماذج - إنما يصف النموذج المتفق عليه ولا يصف ما يحبه أو يستحسنه أو يراه .

وهنا مفترق الطريق بين المدرستين : مدرسة الأقدمين ومدرسة المحدثين . فالشاعر على الطريقة القديمة نسخة من (كتاب إنسانى) واحد ، وإن كان أحياناً نسخة مصقولة الورق محكمة التجليد نظيفة الطبع جميلة الرواء . أما الطريقة العصرية فينبغى أن يكون كل شاعر فيها كتاباً مستقلاً بألفاظه ومعانيه وملاحظاته وشياته . ولا ندعى أن هذا الكتاب أجمل من تلك النسخة في جميع الأحوال وإنما ندعى فضل الاستقلال وليس هو بقليل في سجل الأفضال .

نتقل من هذه الذكريات والملاحظات إلى المختارات بغير تبويب ولا انتقاء ولا أدعى لها كما قدمت فضلاً غير أننى أعبر بها عما وجدته فى ذات نفسى وإننى لا أحكى بها أحداً غيرى ، وقد تحسب لى بعد هذا أو تحسب على كما شاء القراء .

الصدار

هذه القطعة فى وصف هدية وهى صدار - أو صدىرى - مما يلبس فى الشتاء نسجته يد عزيزة :

هنا مكان صدارك هنا هنا فى جوارك

هنا هنا عند قلبي يكاد يلمس حبي
وفيه منك دليل على المودة حسبي
ألم أنل منك فكرة في كل شكة إبرة
وكل عقدة خيط وكل جرة بكرة

هنا مكان صدارك هنا هنا في جوارك
والقلب فيه أسير مطوق بحصارك ...

هذا الصدار رقيب على الفؤاد قريب
سليه ، هل مر منه إلى طيف غريب ؟

نسجته بيديك على هدى ناظريك
إذا احتواني فإني مازلت في أصبعيك

بيت أجرة
وفي القصيدة التالية بيت من بيوت السكن بالأجرة يتحدث
عن ساكنيه :

بني الإنسان لن أحفل في دهري بإنسان
ألم أعرفكم طراً فلم أسعد بعرفاني
أتاني أول القوم وما استوفيت بنياني

وما أرهفت أذانا	ولم آنس بسكان
وأصغيت على مهل	فطاشت كل أذاني
هما زوجان أو شيطا	نة لازت بشيطان
وقد عاشا وفين	بتقدير وحسبان
وراحا-هكذايحكون-	في روح وريحان
وما أبصرت من هذا	ولا من ذاك في آن
سوى خوانة خرقا	ء تقرى عرق خوان
إذا ما ضحكا يوما	على غش ويهتان
حسدت البید والأطلا	ل في غيظي وكتماني
وأشفقت من النعمة	أن تهتز أركاني



وجاء الساكن الثاني	وبش الساكن الثاني
يراه الناس ذا مال	وأفراس وغيطان
وقد شوهني بخلا	وأعراني وأعياني
وقد صيرني سجناء	ومنه كان سجنائي
فلما طال بي عهدا	ولم أسعد بهجران
وددت لو أن لي في كـ	ل جحر ألف ثعبان
بديلا منه أرضاه	وأحبوه بغفران
وأنفت سبأ أو يتـ	قى شرى وبخشانى

إلى أن آذن أجرى ولم يظفر بنقصان
فأخلفني ولن أنسى سروري يوم أخلفني

وكان الساكن الثالث ذا عز وسلطان
فما ارتبت بأن العز والذلة سيان
وما ألفتته إلا لثيما جد غفلان
ضعيفاً يستر الضعف بطغيان وعدوان
وكم أذعن للطاغى عليه شر إذعان
إذا ما لقي النا س بكبر منه طنان
فما أصغر ما ألقاه منه بين جدران

وأما رابع القوم ... فذو علم وتبيان
حشا بالورق اليبس والأخضر حيشاني
فما لي موضع في الأرض أو من فوق عمدان
وما لي مطبخ أو مخدع أو بهو ضيفان
ولا زاوية إلا ... وفيها الكتب تلقاني
أبى للنفس دعاها ولم يسمع لجثمان
فلا سهرة أحباب ولا جلسة ندمان
فما أجهله بالخلق ذاك العالم العاني
أبين الناس يحتاج إلى علم وبرهان

وهم عميان ظلماء سروا في إثر عميان
كثير لك يا إنسا ن في دنياك عينان

وأما الخامس الجاني فناهيك بشهوان
فما زودنى إلا ... بأعطاف وأبدان
وهتاف بألحان وسمار على الحان
إذا أمسيت مسانى بأشكال وألوان
على الأبواب ما يرضيك من حسن وإحسان
ومن صون لأسماع ومن غرض لأجفان
فلا تنظرهم ثمة وانظر بين أحضاني
فيا لله كم في الأرض من غى وغيان
وكم في القوم من مخدوع آباء وإخوان
وأزواج وأصهار وخلان وأخذان
لو أنى قلت ما أدرى لهدوا كل أركاني
فنعم الصمت والحكمة يا صخرى وصواني

يوم لقاء

وفي الشوق إلى يوم لقاء ..

شوقى إليك يكاد يجذب لى غدا
أسرع بأجنحة السماء جميعها
ودع الشمس تسير في داراتها
من وكره ويكاد يطفر من دمي
إن لم يطعك جناح هذى الأنجم
وتخطها قبل الأوان المبرم

ما ضر دهرک إن تقدم واحد یا يوم من جيش لديه عرمم

* * *

الحرب

قالوا هي الحرب فصد به الشفاء يؤمل

قلنا نعم فصد عرق حی وإعفاء دمل

إلى تمثال سعد

ومن قصيدة أخاطب فيها تمثال سعد زغول :

الروح في وادی الكنانة حائم وجلال شخصك في النواظر قائم

ما غاب منك سوى مثال عارض يمضي ويخلفه المثل الدائم

شرفاً أباً الفلاح ما استفتحت من هم وما استتلى بعزمك عازم

لك لا تزال ولن تزال رسالة ما للعظام إن بدأن خواتم